جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

كارل بروكلمان

تاريخ الأدب العربي

الجزء الأول

نقله إلى العربية
الدكتور عبد الحليم النجار

الطبعـة الخامسـة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع.

فهرس

الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى

لكارل بروكلمان

كلمة المترجم

١ — كان تعريب كتاب تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان أملا يراود كل قارئ بالعربية حينما يبحث فى علوم العرب وآدابهم ؛ أو يحاول سبر جهود العلم العربى ومتابعة خطواته فى تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته ؛ أو يريد حصر ما تشتت وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربى فى مكتبات العالم وخزائن الكتب ؛ ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والاعتزاز أو عُدّة ومدداً للبعث والإحياء ؛ أو يتطلع أخيراً إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم من ذلك التراث الخالد ، وما أثير حوله من بحوث ، وصُنِّف من دراسات قدمت خُطا العلم والأدب ، ودفعتهما إلى الأمام فى الشرق والغرب .

وهذه هى المقاصد الكبرى التى وضعها كارل بروكلمان نصب عينه فى تاريخ الأدب العربى ، وهو يغلب عليه — فى هذا العمل — الاتجاه الإنسانى العالمى الشامل . فهو ينظر فى الحياة العربية العقلية قبل كل شىء إلى مكان هذه الحياة فى العالم المحيط بها ، متى ظهر لها احتكاك أو اتصال بذلك العالم ؛ وهو يحاول جهده أن يسجل الدور العالمى الذى اضطلع به أدب العرب — بأوسع معانيه — فى دفع مواكب العلم ، وحث ركاب الثقافة والحضارة ، وهداية المجتمع الإنسانى إلى غايات الحق ، والخير ، والجمال .

إن بروكلمان لا يقصد ، أو بعبارة أصح : لا يقصر قصده من تاريخ الأدب العربى على تلك النظرة العربية البحتة ، المحدودة بحدود الزمان والمكان ، والتى اعتدنا أن نجدها قديماً أو حديثاً عند من تناولوا هذا الفن من الكتّاب والعلماء العرب فى طريقتهم التعليمية الهادفة ، التى تتجه إلى تنمية الذوق الأدبى ، أو تربية ملكة النقد المنهجى ، أو الوصف التاريخى ، الواعى المميز — على أحسن الاحتمالات — بين أساليب الكلام العربى ، ومنازع إنشائه وصياغته ، ومذاهب مدارسه ومغارسه فى مختلف العصور الأدبية ، مع عقد الموازنات والمفاضلات بين ذلك كله من حيث النوازع والأغراض ، والمعانى والألفاظ ، والبواعث والأسباب ، وما إلى ذلك .

كما أنه من ناحية أخرى لا يكتفى بعدِّ أسماء الأدباء من كتّاب وشعراء وعلماء وفلاسفة إلخ ، على نمط كتب الطبقات أو التراجم ، أو على طراز

سجلات Who's Who الإنجليزية — الأمريكية فى أحسن الأحوال ؛ ولا بسرد أسماء المصنفات والمؤلفات العربية فى مختلف فروع العلوم والمعارف والآداب ، على أسلوب فهرست ابن النديم ، وكشف الظنون ، وغيرهما من معاجم الكتب ، وفهارس المكتبات .

بل إن ذلك كله هو بعض ما قصد إليه بروكلمان على طريقته الخاصة ، ومنهجه الذى ارتضاه لكتابه .

لقد ألقى بروكلمان نظرة الفاحص الخبير على الأدب العربى فى مختلف أزمنته وأمكنته وفنونه ، منذ نشأته إلى هذا العصر الراهن :

(ا) فوجد لغة العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام والدولة الأموية لغة محلية خاصة ككثير غيرها من لغات العالم التى اختصت كل منها بجنس أو قبيل فى ذلك العهد ، ولم تبلغ بعدُ من الشيوع والذيوع فى العالم ما يجعلها لغة عالمية تأخذ وتعطى ، وتؤثر وتتأثر ، وتفيد وتستفيد ؛ وهى حقًّا كان لها أدب سرىّ ، وبيان جلىّ ، وفصاحة وبلاغة ، ولكن ذلك لم يَعْدُ أن يكون لوناً من الأدب الخاص الذى لا يكاد يتجاوز فن القول وصناعة البيان .

وهنا أخذ بروكلمان يعرض ذلك الأدب ، فبحث فى أصل الأمة العربية التى يمثلها وتمثله ، ووصف شعوبها وأجناسها ، وبيئتها المحيطة بها ، وأسلوب حياتها ، ونظام معيشتها ، ثم وصف اللغة العربية وخصائصها ، ونظر فى أولية الشعر ومصادر معرفته ، ثم تناول مشاهير الشعراء ، وما بقى من آثارهم .

وسلك قريباً من هذا المسلك فى صدر الإسلام والدولة الأموية ، لشدة تشابه حياة العرب فى هذه العصور ، من حيث غلبة الأمية ، وضيق مجال الثقافة والحضارة ، وعدم الاحتكاك الفكرى أو قلته بالأمم الأخرى ، لولا أنه تعرض بطبيعة الحال لبحث الإسلام ، وتناول آثار القرآن الأولى فى توجيه الأدب ، وبعث الثقافة ، وإحياء العلوم .

على أن بروكلمان وجه عنايته فى كل ذلك نحو الأثر الخالد ، والكتاب الباقى ، ولم يكتف بذلك أيضاً ، بل هو يحرص على عرض الأصداء والآثار الأدبية لذلك كله فى العالم المحيط بالعرب — حسب الإمكان بالنسبة إلى ذلك الزمن السحيق — فى أسلوب من الموازنة لا يستطيع الإقدام عليه أو التعرض له إلاّ من كانت له إحاطة بروكلمان وسعة أفقه ، وقوة تمكنه من مختلف اللغات والثقافات والفنون .

(ب) فإذا ما بزغت شمس العصر العباسي ، وصارت العربية هي لغة العالم الإسلامي كله — في الكتابة العلمية والأدبية على الأقل — وتفتحت لهذه اللغة كنوز العلم والمعرفة ، وانتهت إليها روافد الثقافة من شتى أقطار الأرض ، فهنا يرى بروكلمان أن لغة العرب قد أخذت تستقل في العالم بحمل لواء العلم والحضارة لعدة أجيال وقرون ، وأنها بدأت تسجل دورها العالمي في هداية ركب الثقافة والمدنية إلى أمد طويل ، ورأى حينئذ أن الأدب العربي الخاص لم يعد أجدى على الإنسانية من الأدب العربي العام . ومن ثَمّ شرع في تناول الحياة العقلية كافة بالوصف والنقد والتحليل ، وجعل يعرض صورة متكاملة لحيوات جميع العلوم والفنون ، وتراجم مشاهير العلماء والكتاب والأدباء ، في دراسة مفصلة مقارنة ، مصحوبة بكل ما وقف عليه بروكلمان من آثار العلم والعلماء في مكتبات المشرق أو المغرب ، مشفوعة بكل ما عرفه من وجوه التأثير المختلفة لهذه الآثار في ثقافة العالم وحضارته ، وما عُمِل لها من ترجمات ، وما أثير حولها من بحوث ودراسات ، وما أسهمت به قديماً وحديثاً في تربية العقول ، وتنمية المعارف ، وتوليد الأفكار .

(حـ) وأخيراً ، وبعد أن دالت دولة العلم العربي ، وفرغت لغة العرب من أداء واجبها الإنساني الكبير ، بإنجاز ذلك الدور العالمي الذي اضطلعت به على أتم وجه في نشر ظلال المعرفة والحضارة ، وإضاءة أرجاء الدنيا بأنوار الحكمة والهداية ، ورفع المستوى العقلي والخلقي والاجتماعي للإنسانية جمعاء كما لم تفعل ذلك لغة من قبل .

وبعد أن سلّمت هذه اللغة العريقة تركتها العقيدة الزاخرة إلى لغات الأمم ، وشعوب العالم ، التي لم تكن قد احتلّت بعدُ مكانها في تاريخ البشر ، والتي كان عليها أن تسهم بقسطها هي أيضاً في قيادة ركب المدنية ، ورفع منار الثقافة . . .

عندئذ عادت هذه اللغة العربية كما بدأت : لغة محلية تتجاوب أصداؤها بين ربوع أهلها ، ويقتصر أدبها العام على ترديد أنغام المجد التليد ، وتمجيد آثار السلف العظيم ، وتمجيد محصول التراث القديم ، كما ينحصر أدبها الخاص مرة أخرى في فن القول وصناعة البيان ، على تفاوت بين النزعتين في القديم والحديث ، وتباين في الطبيعتين بين الغابر والحاضر .

إلى أن أشرق فجر النهضة الحديثة في ربوع المشرق ، واقتربت أنحاء العالم بعضها من بعض ، وتهيأت لتبادل الأفكار وتفاعل الثقافات فرص لم

تكن لتسنح للبشرية إلا بفضل ما وصل إليه العلم العالمى من تقدم فى العصر الحديث ، وفى هدى من خطوات الأولين .

وحينئذ استأنفت العربية حياة جديدة كما نراها اليوم ، وبدأت تؤكد وجودها ، وتفيق من سباتها ، وتبارك تقدم العلم ، وتشارك فى نتائج انتصار العقل بما أسلفت فى هذا السبيل من جهود ، وقدمت من عمل محمود ، وإن كان نصيبها المعاصر فى بناء الحضارة الحديثة — من الجانب العلمى البحت على وجه الخصوص — لم يكد يتجاوز بَعْدُ حظ القابل لا الفاعل، وحصة الأخذ لا المعطى .

ورأى بروكلمان ذلك بنفاذ بصيرة وصواب تقدير ، فعمد فى الشق الأول إلى تسجيل كل ما عرفه من الآثار الباقية لهذه المرحلة بقضها وقضيضها ، مبرزاً من ذلك ما يستحق التنويه والإشادة به لما تركه من أثر فى دنيا الناس قريب أو بعيد ، وكشف بذلك عن تراث حقبة من حياة العربية طالما أخفته يد الفرقة والانقسام بين أجزاء العالم العربى ، أو استبد به تسلط الحكام الأجانب على مقادير العرب وأزمة أمورهم ، أو عبثت به شهوات السلب ، أو النهب ، أو الخيانة ، أو التبذير .

ثم انتقل بروكلمان إلى الشق الثانى من حياة العربية فى عصرها الأخير ، فوجد العلم العربى يأخذ طابعاً تعليمياً بحتاً ، قد تكون له صولة أو جولة فى معاهد الثقافة ، وبين جدران مدارس التعليم ، ولكنه لا يكاد ينهض بَعْدُ إلى مستوى العلم الرفيع الذى بلغه فى كبريات دول العصر الحديث .

بيد أن بروكلمان أدرك تمام الإدراك من جانب آخر أن روح النهضة الحديثة أخذت تنتشر بقوة فى كيان الأدب العربى الخاص ، فقصر تناوله للغة العربية على هذا الجانب ، وراح يدرس جذور هذه النهضة ومعوّقاتها ومقوّماتها ، ووصف حيوات روّادها وقوادها ، ويعرض أعمالهم وآثارهم عرضاً مشبعاً بالتحليل والاستيفاء ، وموازنة وجوه التشابه أو التأثر أو التأثير بين كل ذلك وما عرفه هو من آداب الأمم الأخرى .

وهذا علم جم غزير .

٢ — لم يكن بروكلمان — كما ألمعت إلى ذلك من قبل — أبا عذرة هذا الفن الذى اشتهر اليوم بفن تاريخ الأدب العربى .

فأما من جانب العرب فقد سبقت لهم جهود حميدة أعدوا بها للباحث الحديث على طريقة عصرهم مواد البحث ، وعُدّة الدراسة . ونجد ذلك بوفرة ،

منذ العصر الأول للتدوين العربى ، فى مثل دواوين الشعراء ، وكتب التأريخ للسياسة ، والحضارة ، والثقافة ، وكتب الطبقات ، وفهارس المكتبات ، ومجاميع العلوم ، وغير ذلك مما صنف فى نظم الحكم والإدارة ونحوها من جوانب الحياة العامة أو الخاصة .

وطبيعى أن ذلك المنحى فى وصف العلوم والمعارف تغلب عليه طبيعة التناثر والتفكك ، ولا يساعد القارئ الحديث على اكتساب صورة متكاملة للأدب العربى كافة إلا بعد جهد شديد وعمر مديد ، ومن ثم لا يجوز حسبانه تاريخاً للأدب العربى إلا بسبيل من التخيل أو المجاز .

ولكن بروكلمان نفسه يقرر بحق أن أول من قام بمحاولة لتقديم تاريخ الأدب العربى فى عرض كامل هو المستشرق النمسوى : يوسف هامّر پورجستال ، الذى صنف كتاباً فى هذا الفن يشتمل على سبعة أجزاء ، ونشره فى ڤينا سنة ١٨٥٠ م . على أن هذا المستشرق « لم يكن على علم كاف بالعربية ، كما أن أهم مصادر تاريخ الأدب لم تكن قد عرفت بعد فى زمانه »[١] .

ثم صنف أربثنوت الإنجليزى سنة ١٨٩٠ م كتاباً فى التاريخ والأدب العربيين ، يتسم بالإيجاز المخل ، ولا يتميز كثيراً عن كتاب پورجستال[٢] .

ولكن فى المدة بين الكتابين السالفين صنف المستشرق النمسوى أيضاً : ألفريد فون كريمر ، تخطيطاً مختصراً ولكنه ممتاز لتاريخ عمران المشرق فى عصر الخلفاء ، نشره سنة ١٨٧٧ فى ڤينا ، وكان له أثر قوى فى توجيه بروكلمان ، وتنوير جوانب الموضوع الذى تعرض له[٣] .

ثم نشر بروكلمان نفسه الطبعة الأولى من كتابه هذا فى مدينة « ڤايمر » بألمانيا سنة ١٨٩٨ م .

على أنه ينبغى ملاحظة أنه كان قد ظهر فى مصر قبل بروكلمان أيضاً كتاب فى تاريخ العرب وآدابهم ، من تأليف : إدوارد فانديك وفيليبيدس قسطنطين طبع فى بولاق سنة ١٨٩٢ ؛ ولكنه كتاب تعليمى لا يقدم إلا نظرة عابرة فى أدب العرب وثقافتهم ، وإن تأثر — فيما يبدو — بالكتب الألمانية والإنجليزية السابقة عليه والمذكورة من قبل .

ومنذ ظهور كتاب بروكلمان أخذت كتب تاريخ الأدب العربى تصدر تباعاً فى الشرق والغرب ، وإن كان يمكن أن يقال إن هذه الكتب اتسمت كلها على وجه التقريب بميسم التأثر ببروكلمان عن طريق مباشر أو غير

(١) انظر ص ٣٣ فيما بعد. (٢) انظر الموضع السابق . (٣) انظر ص ٣٤ فيما بعد .

مباشر ، واحتذت منهجه على الأقل فى تناول تاريخ العرب من الوجهات العقلية والعلمية البحتة ، والأدبية الخاصة ، وغير ذلك ، فى إطار جامع تارة ، وفى دراسات مفصلة متمايزة تارة أخرى .

ولكن يجدر بنا ألا نغفل بحوث المعاصرين من العلماء الاختصاصيين والأدباء الممتازين من العرب والمستشرقين ، وألاّ نبخسها حقها فى تنوير جوانب الأدب العربى من جميع جهاته ، والكشف عن كثير من غوامضه وأسراره ، فقد بذلت فى هذا السبيل جهود جبارة فى العصر الحديث بعد كتاب بروكلمان ، وظهرت نتائج لهذه الجهود لم تكن تجول فى حسبان .

على أن بروكلمان لم ينم على المجد الذى أحرزه بعد إخراج الطبعة الأولى من كتابه ، بل ظل يتعب ويدأب ، ويجمع ويرتب ، ويجوب الأقطار ، ويستهين بالأسفار ، إلى أن توافرت له مادة غزيرة تربى على ما نشره بكثير ، فلم يسعه إلا أن ينشر هذه الزوائد والفوائد فى ملحقين كبيرين أضخم من ضعف الجزأين الأولين ، نشرهما سنة ١٩٣٧ م .

ولم يكن بروكلمان قد تناول بعد تاريخ الأدب العربى الحديث فيما نشره من تلك الأجزاء السابقة واللاحقة ، بل كان لا يزال يدرسه فى أناة ومهل ، وهو معلق الذهن ، مشغول البال بإتمام العصور السابقة عليه فى الصورة التى ارتضاها أخيراً بعد نشر الذيل ، فلما تم له ذلك نشر سنة ١٩٤٢ م جزءاً ضخماً فى تاريخ الأدب العربى الحديث .

وفى أثناء هذا التاريخ الطويل ، الذى أخرج فيه بروكلمان كتابه الأصلى وملاحقه ، لم يفتأ بروكلمان مخلصاً لعلمه ، مثابراً على نشاطه وبحثه ، ولم تزل مادة الكتاب الذى أحكم تأليفه تجول فى خاطره ، وتملأ تفكيره ، فيعود إلى ما كتبه فى الطبعة الأولى تارة بالتعديل والتصحيح ، وتارة أخرى بالنسخ والتغيير ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار كبير اقتضاه إعادة طبع الجزأين الأولين مصححين مهذبين سنتى ١٩٤٣ و ١٩٤٩ م ، ولو أن بروكلمان قدر له أن يعيش أطول مما عاش لكان أغلب الظن أن يغير كثيراً ، وأن يصحح كثيراً ، وأن يزيد بعد أكثر من ذلك ، وهذه هى سنة العلم والعلماء ، بل هى سنة الله فى خلقه : يكون البدء كبيراً ، ثم ينمو ويتزايد ويتكامل ، ولله الكمال وحده .

ومما يُقْضى منه العجب أن بروكلمان لم يقتصر نتاجه العلمى على إخراج تاريخ الأدب العربى فى هذا القالب ، الذى هو جدير بأن يستوعب حياة

طويلة ، كاملة ، حافلة ، بل لعل هذا التاريخ قُلٌ من كثُر ، وفيض من بحر ، إلى جانب ما أخرجه بروكلمان من دراسات وبحوث تُعدّ بالمئين ، وتدل على إحاطة شاملة واختصاص عميق بجوانب الثقافة الشرقية على العموم ، والعربية على الخصوص (١) .

٣ ــ وقبل أن أختم كلمتى فى عرض تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان أذكر أنى سلكت فى ترجمة هذا الكتاب طريقة المزج والتأليف بين الكتاب الأصلى وملاحقه ، مع ملاحظة الطبعتين الأولى والثانية للكتاب الأصلى ، بحيث يتحصل من كل ذلك كتاب موحد النسق ، متصل الموضوعات . وهذه هى الطريقة التى ارتضاها بروكلمان نفسه ، ووضع هو خطتها لترجمة الكتاب بعد أن استشارته فى ذلك الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، وحصلت على موافقته وإذنه بالترجمة سنة ١٩٤٨ م .

وكان بروكلمان قد بعث أيضاً إلى الإدارة المذكورة بجزء كتبه بخطه ، وباللغة العربية هذه المرة ، يحتوى على تصحيحات وزيادات لغرض إلحاقها بالترجمة . فالتزمت أيضاً مراعاتها وإضافتها فى مواضعها ، إلى جانب التصحيحات والتعقيبات الأخرى التى ألحقها بروكلمان فى أواخر الأجزاء من النسخ المطبوعة.

وكان من همّى أن أضم إلى الكتاب أيضاً نتائج البحث والتنقيب ، ومحصول الكشف عن رصيد المكتبات العامة والخاصة التى لم يكن بروكلمان قد اطلع عليها.

وقد اجتمع كثير من ذلك فى السنوات الأخيرة بفضل جهود جامعة الدول العربية وغيرها من مؤسسات الثقافة والعناية بالتراث العربى ؛ ولكن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية آثر التعجيل أولا بترجمة الكتاب على صورته التى وضعها بروكلمان ليخلص عمله له وحده ، ولئلا يتأخر صدور الكتاب من أجل ذلك عن القارئ العربى ، كما فضل هذا المعهد عدم الإكثار من التعليق والتحقيق اللذين قد تمس الحاجة إليهما فى نصوص الكتاب وموضوعاته للسببين المذكورين أيضاً .

---

(١) انظر فى تاريخ حياة بروكلمان ووصف مؤلفاته :

Joh Fück, Carl Brockelman als Orientalist (Wissenschaftliche Zeitschrift der Martin-Luther Universitat, Halle-Wittenberg VII 1957-58 p. 857-875.

وانظر قائمة كاملة بآثار بروكلمان فى كتاب : المنتقى من دراسات المستشرقين للدكتور صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٥) .

وإذاً فقد يسعنى أن أقول إن هذا الكتاب يقدم قالباً عربيًّا صحيحاً لكتاب « تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان » ، على أدق وجه ممكن من الترجمة والنقل ، عدا ما لا يمكن تجاوزه من تلافى سهو ، أو تصحيح نقل ، أو تعليق وجيز فى أشد المواضع حاجة إلى مثل هذا التعليق[1] .

ولا يفوتنى أن أذكر بهذه المناسبة أن الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، حرصاً منها على كمال الترجمة ، ومبالغة فى العناية بإخراج الكتاب فى أحسن مظاهر الإتقان ، قد وكلت إلى الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة ، مقابلة النص العربى على الأصل الألمانى ، وإلى الدكتور صلاح الدين المنجد ، مدير معهد المخطوطات فى الجامعة العربية ، تحقيق ما يتعلق بالكتب والمخطوطات وفهارس المكتبات .

ولا أنسى أن أعرب أخيراً للأمانة العامة بجامعة الدول العربية عن أجزل الشكر ، وأخصها بأجمل الذكر ، وفاء وعرفاناً بما تسديه هذه الأمانة الكريمة إلى العرب والعروبة من أياد بيضاء ، ومنن غراء ، يتجلى بعض جوانبها الكثيرة الكبيرة فى إحياء تراث العرب ، وتخليد مجدهم ، وإبراز ثقافتهم وحضارتهم فى ميادين العلم والمعرفة .

والله المسئول أن ينفع العرب بهذا الكتاب ، وأن يفتح به آفاقاً جديدة لخدمة العروبة والعربية ، وأن يجزى مؤلفه وكل من شارك فى تيسير متناوله للقارئ العربى خير الجزاء .

عبد الحليم النجار

القاهرة فى أكتوبر ١٩٥٩

---

(١) التعليقات المسبوقة بالنجمة * فى ثنايا الكتاب هى من إضافة المترجم .